الفصل الخامس

أفغانستان

دعهم يأكلون الحشائش

obeikan.com

obeikan.com

تطبيع الكوارث غير الطبيعية

كتب محلل الميديا الأمريكى إدوارد هيرمان ذات مرة: ما يحدث هو عبارة عن عملية دفاع يقوم بها المثقفون وخبراء آخرون وميديا الاتجاه السائد، لتطبيع الأحداث التى لا يمكن تصديقها لدى الجماهير العريضة (محو الشر <www.informafionclearinghouse.info/article7278.htm>). يتم تطبيع الأحداث التى من هذا النوع بالمرور مر الكرام على أعتى جرائم الدول ذات النفوذ، وإبعاد الشكوك عن حقيقة بشاعة هذه الجرائم، وأحيانا ـ وهو مسار قد يكون له أسوأ النتائج ـ الزعم بأن الغاية تبرر الوسيلة، وكذلك يتم هذا التطبيع بتضخيم جرائم الأعداء الرسميين ووضعها تحت المجهر.

تكمن تحت هذا التحريف المضلل حقيقة أساسية مؤداها: أن معاناة الفقراء ذوى الجلود السمراء من شعوب العالم الثالث لا تعنى صحفيى مؤسسات النخبة إلا بالكاد. وعلاوة على ذلك ـ وكما أوضحنا فى الفصل الأول ـ فإن معاناة العالم الثالث لا تعنى الكثير، وإن نجاح مؤسسات الميديا يعتمد على العلاقات الإيجابية مع المراكز الضخمة ذات النفوذ الاقتصادى والسياسى. مثلهم مثل مديرى المؤسسات التنفيذيين، فإن الصحفيين ملتزمون قانونا بجعل هذه الاعتبارات، وفن نجاح الاتجاه السائد فى الصحافة، يتمثل فى القيام بذلك دون ملاحظة الجمهور.

كانت حرب أفغانستان لقطاع كبير من الميديا قد انتهت بسقوط كابول فى ١٣ نوفمبر ٢٠٠١م، وكالعادة، ركزت التقارير على الجرائم الخفية للآخرين، وعلى ضرورة أن ندمر طالبان وتنظيم القاعدة. مع تنفيذ الهدف (جزئيّا)، يعلن الصحفيون نصرا إنسانيّا آخر، ويتحركون تجاه أمور أخرى. فجأة تصبح الحرب هى النبأ الأساسى فى الأخبار، ولا شىء عما سوف تؤدى إليه من ضحايا مدنيين جراء عمليات القصف. قصة مختلفة

ـ ثمن انتصارنا من أجل شعب أفغانستان ـ تهدد بإلقاء الضوء على جرائمنا، وهكذا تجاهلتها الميديا عندنا. إن المنهج الذى استخدمناه فى طمس الحقائق كان ملحوظا تماما.

لا يفوت القارئ الذكى للصحافة اكتشاف أن ضحايا القصف الذى بدأ فى ٧ أكتوبر ٢٠٠١م قد فاق خسائر الأرواح فى ١١ سپتمبر ٢٠٠١م. لكن هذه النتائج الجانبية لا تمثل إلا جزءًا ضئيلاً من التدمير.

صدرت الصحف فى ١٦ سپتمبر بخبر مؤداه أن حكومة الولايات المتحدة أمرت بأن تتوقف پاكستان عن نقل الغذاء لأهالى أفغانستان المتضورين جوعًا والمعتمدين على هذه المعونات كلية. فيما بعد وفى نفس الشهر، حذرت منظمة الأمم المتحدة للغذاء والزراعة من أن أكثر من ٧ ملايين شخص يواجهون كارثة سوف تؤدى إلى تفشى الموت جوعا إذا ما بدأت العمليات العسكرية، مع احتمال كارثة إنسانية إذا لم تُستأنف المعونات ـ وعلى الفور ـ وتتوقف تهديدات العمليات العسكرية. حذر دومينيك نوت من منظمة المعونة المسيحية: الأمر يبدو كما لو أن مقبرة جماعية تم حفرها وراء ملايين من البشر. يمكننا أن نخرجهم منها أو نحشرهم فيها. بذلك يمكننا توقع ملايين من حالات الوفاة (ستيفن موريس، وفيليستى لورانس، **أفغانستان تواجه كارثة إنسانية**، الجارديان، ١٩ سپتمبر ٢٠٠١م).

تخيل تحالفًا غربيّا يبدأ هجومًا لاقتلاع جذور الإرهاب من ـ ولْنَقُل ـ إسپانيا، مع العلم بأن حوالى ٧ ملايين مدنى إسپانى قد يفقدون حياتهم نتيجة لذلك.

الجدير بالذكر أنه رغم إطلاق الميديا لهذه التحذيرات عن الموت الجماعى، فإن القصة تم إغفالها ببساطة. تُرى كم سيبلغ عدد الموتى حين يبدأ تساقط الجليد؟ كم من الملايين السبعة سيتم دفنهم فى مقبرة جماعية؟ بالتأكيد أن حكومتنا ـ منفذة الحملة الصليبية الأخلاقية على كوسوڤو ـ لم تهتم من قريب أو بعيد بمثل هذه التساؤلات. ولكن مصير ملايين الأبرياء بسبب سياسة أمريكا والمملكة المتحدة لا تعد مسألة تدعو للأهمية فى نظر الميديا عندنا. يمكن أن نستشعر بعض جوانب الضجة الأخلاقية لديمقراطيتنا من الحد الأدنى للتغطية التى ظهرت.

فى تحذيرات الميديا بتاريخ ٣ يناير ٢٠٠٢م، وصفنا الأحوال فى معسكر اللاجئين فى مسلخ غرب حيرات فى أفغانستان، حيث يلقى ١٠٠ شخص حتفهم يوميا. ولما

كان المعسكر يضم ٣٥٠,٠٠٠ نسمة، فمن المؤكد أنه أكبر معسكر للاجئين فى العالم. قبل أربعة أشهر، وفى ١٩ سبتمبر ٢٠٠١م، رصدت الجارديان وفاة ٤٠ شخصًا يوميًا فى معسكر المسلخ، بسبب أن الكثيرين وصلوا إلى المعسكر وهم فى حالة متردية بالفعل، بعد أن حاولوا كثيرًا البقاء فى قراهم.

حيث إن معدل الوفيات ارتفع من ٤٠ يوميًا قبل القصف بالقنابل إلى ١٠٠ يوميًا بعد بدء الهجوم، يبدو واضحا للغاية أن أفعال حكومتنا أدت إلى حشر آلاف فى مقبرة جماعية. ومع ذلك، وعلى وجه الدقة لأن ذلك كان هو الأمر الواقع بالفعل، لم يكن لدى الميديا الكثير لتقوله حول معاناة المدنيين وحول المسلخ.

ظهرت تقارير عرضية. ففى يناير ٢٠٠٢م، وصف دوج ماكنلى الصحفى فى الجارديان كيف تحدث الوفاة بين اللاجئين بسبب تعرضهم للقصف والجوع فى المسلخ. إن حجم المقابر الصغيرة فى ناحية المدافن على حدود المعسكر يعد دليلاً واضحا على أن معظم من دفنوا من الأطفال، كما لاحظ ماكنلى. تم الاستشهاد بأقوال إيان ليثبريدج ـ المدير التنفيذى للمنظمة الخيرية «أطعموا الأطفال» ـ حين قال: دائما ما أحكم على كل شىء بما رأيته من مآس فى إفريقيا. وهذا يماثل ما رأيته هناك، فقد أصبت بالصدمة للأحوال المتردية للقادمين الجدد (ماكنلى، **تُرك اللاجئون فى البرد فى معسكر المسلخ**، الجارديان، ١ يناير، ٢٠٠٢م). أقر ماكنلى أن شيئًا من المعونة تقريبًا لا يصل إلى المسلخ. عملت منظمة «أطعموا الأطفال» على توصيل ٤٠ طنًا من الغذاء والكساء إلى حيرات الأسبوع الماضى، ولكن فى ذلك الوقت كان مجرد ٤ مخابز تقوم بإطعام المعسكر بأكمله بأفراده البالغ عددهم ٣٥٠,٠٠٠. واجهت سيدة من المعسكر ماكنلى: إنك تقوم بالتقاط صور، أنت لست هنا لتقديم مساعدة، لا يمكننا أكل الصور، نحن نموت، نحن فى حاجة إلى طعام ودواء. كانت الأحوال خارج المعسكر أكثر هولا. أصدرت منظمة المعونة المسيحية فى ٤ يناير تقريرًا:

> إن اللاجئين الذين يفدون إلى معسكر المسلخ بالقرب من حيرات وصفوا الظروف الفاجعة التى تعيش أسرهم فيها. أعاق سقوط الثلوج بكثافة توصيل الإمدادات الإنسانية لكثير من المناطق المنكوبة فى إقليم الغور الجبلى فى أفغانستان... (موقع منظمة المساعدة المسيحية، **الجوع يجبر العائلات على هجر المساكن الجبلية**، ٤ يناير ٢٠٠٢م).

حذرت حياة فاضل من منظمة المشروع النرويجى لمؤسسة إعادة تأهيل المناطق الريفية فى أفغانستان ـ شريكة منظمة المعونة المسيحية ـ من أن القرى الريفية كانت مهملة، بينما يحصل معسكر للاجئين مثل معسكر المسلخ على نصيب الأسد من المعونة! (المرجع السابق).

لا بد أن القراء سيستعيدون الصور التليفزيونية عن آلاف من المدنيين وهم يهربون من الحرب والقصف بالقنابل فى كوسوفو فى ١٩٩٩م. أعادت شبكتى آى. تى. إن.، وبى. بى. سى. مرارا بث مشاهد الصور المأساوية عن التلال المملوءة بلاجئين يائسين، يتعرضون يوميا للسؤال، والمقابلة الشخصية، والتصوير. كانت هناك تغطية مطولة وحساسة عن المعاناة الإنسانية المروعة.

وعلى العكس من ذلك، فإنه بين سبتمبر ٢٠٠١م ويناير ٢٠٠٢م، ذكرت الجارديان والأوبزرفر كارثة المسلخ خمس مرات ـ بمتوسط مرة كل شهر. أظهر بحث أجرته قاعدة بيانات ليكسيس نيكسيس (مايو ٢٠٠٥م) أن مجموع ما ذكر بشأن المسلخ هو ٢١ مرة بين ٢٠٠١ و ٢٠٠٥م فى جميع الصحف القومية فى المملكة المتحدة.

ذكرت الجارديان والأوبزرفر قصة سجناء معسكر خليج جوانتانامو ـ وهو موضوع محدود، مقارنة بمسئوليتنا عن الموت الجماعى للاجئين الأفغان ـ ٩٧ مرة فى يناير ٢٠٠٢م فقط. وكانت أرقام قاعدة بيانات لكسيس نيكسيس عن خليج جوانتانامو بالحجم نفسه (أكثر من ١٠٠٠) فى الفترة من مايو ٢٠٠٤م إلى مايو ٢٠٠٥م. وكذلك على النقيض، ذكرت الجارديان والأوبزرفر بين أبريل ويونيو ١٩٩٩م مأساة اللاجئين فى كوسوفو على حدود مقدونيا مع كوسوفو ٤٨ مرة ـ بمعدل مرة كل يومين. إلا أن حجم المعاناة وشدتها يتضاءلان بشدة مقارنة بما فى أفغانستان.

والفرق الحيوى هو فى الاتجاه الذى على أصابع الاتهام أن تشير إليه رغم أن مأساة كوسوفو الإنسانية كانت رد فعل لحملة الناتو الجوية ـ قرر مراقبون محايدون، وحتى الإدارة الأمريكية أن الهجرة الجماعية والأعمال الوحشية المتزايدة، بدأت بعد بداية القصف ـ اختارت الميديا تصديق الادعاءات البريطانية والأمريكية بأن الإبادة الجماعية الصربية هى المسئولة. وكنتيجة لذلك ـ فى أثناء أزمة كوسوفو ـ فإن مأساة اللاجئين استخدمت كدعاية قوية لتبرير هجوم الناتو.

وفى أفغانستان ـ من ناحية أخرى ـ كان من الواضح أن الحرب ضد الإرهاب تتحمل مسئولية كبيرة فى منع المواد الغذائية، وما تلاه من معاناة جماعية وموت جماعى بداخل معسكرات الأفغان وخارجها. وفى تقرير للصندای تلجراف، كتب كريستيان لامب عن لاجئى المسلخ:

> جاء معظمهم من الأقاليم الشمالية: فارياب، وجهور، وسار ـ إى ـ پول، وكذلك غازنى فى وسط أفغانستان، والمناطق الجبلية، التى كان برنامج الغذاء العالمى يقدم لها المعونات الغذائية التى توقفت بسبب القصف. والآن لا يمكن الوصول إلى قراهم لانقطاع الممرات الموصلة إليها (**يطلقون على ذلك اسم «المسلخ»**، الصندای تلجراف، ٩ ديسمبر، ٢٠٠١م).

فى واحدة من المقالات القليلة فى الأوبزرڤر عن هذا الموضوع، ذكرت سوزان جولدنبرج أن المسلخ أصبح بالفعل مأساة فى صيف ٢٠٠١م، ولكن نزلاءه تضخموا بعد ١١ سپتمبر عندما تم ترحيل العاملين فى برنامج المعونة الدولية من أفغانستان خوفا من القصف (**الجوع والانتقام يفترس الأفغانيين المنتشرين فى خيام المدينة**، الأوبزرڤر، ٢٧ يناير، ٢٠٠٢م).

إن ذلك بالطبع إدانة دامغة للحكومتين الأمريكية والبريطانية على حربهما فى سبيل الحضارة، ولمؤسسات الميديا التى تدعمهما. ولذلك فإن السياسيين لم يعيروا هذه المأساة التفاتا، ومرة أخرى، شعرت الميديا بالسعادة فى أن تفعل المثل. ذكرت كاتبة العمود ناتاشا معسكر المسلخ فى الإندپندنت حين كتبت:

> تعانى هذه الشعوب من الرعب الذى نزل عليهم من الغرب. نعم أعلم أنهم عانوا على مر السنوات الماضية من شرور حكامهم الأصوليين، لكننا الآن نشاركهم مسئولية مأساتهم. إذا لم يكن ما حدث بسبب صواريخ الغرب التى ألقيت فوق قندهار وقندوز، لما رأينا هؤلاء الأطفال الذين نطالع وجوههم فى صحفنا هائمين فى الشوارع بيأس، يجتازون بشق الأنفس التلال والصحارى، ويعيشون فى خيام فى العراء (**هؤلاء اللاجئون مسئوليتنا**، الإندپندنت، ٢٢ نوڤمبر، ٢٠٠١م).

بعيداً عن هذه اللمحات، فإن مسئوليتنا عن المعاناة الجماعية والوفيات فى أفغانستان اختفت تحت ستار من الصمت واللامبالاة.

أعور فى بلاد العميان

عرفانا بالحق، فإن آى. تى. إن. قامت ببعض المحاولات لإظهار المأساة. ففى ٩، و١٣، و ٢٢، و ٢٦يناير، غطى مراسلوها قصة «مارچان الأسد الأعور» فى حديقة حيوانات كابول. مست صورة ضرب مارچان قلوب الناس حول العالم، هكذا أخبرت آى. تى. إن. مشاهديها فى الساعة ٩، ترمز مأساته إلى سوء المعاملة إبان حكم طالبان! كنتيجة، هرول فريق من الأطباء البيطريين لتقديم أقصى معونة مطلوبة... من العلاج والطعام (أخبار تليفزيون وقت الظهيرة، شبكة آى. تى. إن. فى ٩ يناير، ٢٠٠٢م). وصدر ڤيديو كليب نتيجة هذه الحملة، وهو يجسد ملامح مارچان وهو يلوك بسعادة قطعة كبيرة من اللحم.

وعلى المشاهدين قراءة التقارير النادرة للجارديان عن معاناة المدنيين ليكتشفوا ماذا يأكل الأفغان فى كل مكان من بلادهم ذلك اليوم نفسه: قرية بونوڤاش تموت جوعًا ببطء، كتبت راڤى نيسمان:

> تعود ذلك الشعب الذى يسكن الجبال البعيدة بعد حصار طالبان ولعنة الجفاف، أكل خبز مصنوع من الحشائش وقليل من دقيق الشعير. والرضع الذين جف اللبن فى أثداء أمهاتهم يأكلون عصيدة من الحشائش. والذين تهدمت أسنانهم من المسنين يمضغون الحشائش التى حولوها إلى ما يشبه البودرة. مات الكثيرون، ومرض العدد الأكبر. الجميع تقريبا مصابون بالجفاف والسعال. عندما يصبح ألم الصغار غير محتمل، تربط أمهاتهم قطعا من القماش حول أمعائهم، محاولة للتخفيف من حدة الألم! نحن ننتظر الموت. إذا لم يأت إلينا الطعام، إذا لم تتغير الظروف، سوف نستمر نأكلها (الحشائش)... حتى نموت، هذا ما قاله غلام رازا، رجل يبلغ ٤٢ عاما يسعل بشدة، ويعانى من آلام المعدة، ونزيف فى الأمعاء (نيسمان، **الأفغان يأكلون الحشائش، والمعونات لا يمكن توصيلها لهم**، الجارديان، ٩ يناير، ٢٠٠٢م).

تقص نيسمان قصة خادا باكش، عامل سابق بمزرعة، الذى كان ينظر بيأس إلى بناته الأربع:

منذ ثلاثة أسابيع مضت كان لأطفاله أم وأخت رضيعة. ماتت الاثنتان. استجدى خادا باكش جيرانه أن يمنحوه بعضا من دقيق الشعير الذى يزرعونه داخل منزلهم بحيث يمكن لأسرته أن تصنع أرغفة الخبز من الحشائش... من الأفضل أن نموت فى منزلنا، وليس فى مكان غريب ووسط الأغراب، كان ذلك ما قاله (المرجع السابق).

بفضل لامبالاة الساسة والميديا، لم يؤرق أى من هذه الروايات ضمير الشعب البريطانى.

عندما ضغطنا من أجل معرفة سبب التغطية النادرة للمأساة الإنسانية فى أفغانستان على شبكة آى. تى. إن. بينما ركزت انتباهها على الأسد، أجاب چوناثان مونرو، رئيس فريق جمع الأخبار فى. آى. تى. إن. بالتالى:

لقد أوردنا بالفعل عدة تقارير عن المأساة الإنسانية للاجئى أفغانستان الذين تشردوا نتيجة الأحداث الحالية... لماذا هذا التركيز على الأسد؟ لأن الشكوى الدائمة لمشاهدينا هو فشل البرامج فى تتبع القصص، فلماذا لا نُحَدِّث معلومات المشاهدين بشكل كافٍ فيما يختص بالقصص التى سبق وأوردناها؟!.

فى هذه الحالة، كانت هناك ثلاث مراحل: الأولى: مقابلة شخصية مع أطباء بيطريين بريطانيين وهم يغادرون المملكة المتحدة؛ والثانية: لمحة عن أول تقييم لحالة الحيوان؛ والثالثة: ملاحقة ما حدث بعد بدء العلاج. وهكذا اكتملت القصة، ولم نفكر فى العودة مرة أخرى إلى حديقة الحيوان (رسالة إلكترونية إلى داڤيد إدواردز، ٢٣ يناير، ٢٠٠٢م).

والحقيقة أن آى. تى. إن. عادت مرة أخرى إلى سرد القصة، وروت أن الأسد مات. استمرت لامبالاة آى. تى. إن. الغريبة بضحايا المأساة الإنسانية فى أفغانستان، وذلك بعدم وجود تغطية شاملة أو أخبار عن الموت الجماعى جوعًا للاجئين فى تلك الفترة نفسها.

على النقيض، فى ١٨ يناير ٢٠٠٢م، أعلنت منظمة «علاج بدون حدود» عن واحدة من الكوارث (المشكِّلة) التى أحاقت بشعب أفغانستان: الولايات المتحدة أسقطت قنابل عنقودية.

ألقيت قنابل كثيرة على المناطق السكنية والمأهولة بالسكان، وحاول مركز «العمل فى الألغام» بكل طاقته التعامل مع كل الحالات الجسيمة. على أى حال، لم تكن أمامهم الموارد الإنسانية أو التنظيمية الضرورية لنقل الجرحى وإيوائهم، وغيرها من الموارد اللازمة لإخلاء الإقليم بشكل مناسب فى خلال فترة زمنية ملائمة.

واستمرت المنظمة فى تقريرها:

كانت منظمة «علاج بلا حدود» تصادف فى غرفة عملياتها الميدانية عدداً كبيراً من المدنيين المصابين بالألغام أو القنابل المتفجرة (بما فيها القنابل العنقودية) أثناء الغارات الجوية الأمريكية القريبة فوق حيرات غرب أفغانستان، ألقيت عدة قنابل عنقودية فوق أماكن سكنية؛ مما تسبب فى عدد كبير من وفيات المدنيين والمصابين بجراح بالغة... وفقا للبيانات الرسمية لمنظمات مناهضة زرع الألغام المحلية والمستشفى الإقليمى فى حيرات، حدثت ٣٨ حالة وفاة، وعدد غير معلوم من الجرحى نتيجة للقنابل العنقودية التى تم تسجيلها حتى ذلك الحين. على أى حال، اعتقد بعض الأطباء فى مستشفى حيرات الإقليمى أن العدد أكبر بكثير. وفى قرية كالا شاكر بالقرب من مدينة حيرات وحدها توفى ١٢ شخصًا، وجُرح أكثر من ٢٠ نتيجة القنابل العنقودية (علاج بلا حدود، **القنابل العنقودية ميراث لسكان أفغانستان**، ١٨ يناير، ٢٠٠٢م، <www.msf.org>).

تحتوى كل قنبلة عنقودية على ٢٠٢ قنبلة، لا ينفجر منها حوالى ٢٠ فى المائة وقت قصف الهدف. تحتوى تلك الذخيرة على ثلاث آليات للقتل: ضد الدروع، وضد المقاومة، والحارقة، مكونة ذخيرة ثلاثية القتل. تخترق الشظيات التى تزن ٣٠ جراماً سبيكة من الصلب سمكها ٦,٤ م على مسافة ١١ مترا، والمضادة للدروع يمكنها

اختراق ١٩ سم من الصلب، تصيب شخصًا على ١٥٠ مترا. يمكن أن تنفجر بأدنى تغير فى المناخ ـ على سبيل المثال إذا سقط ظل شخص على قذيفة موضوعة فى الشمس ـ أو بالذبذبات البسيطة، أو حتى من الطاقة المنبعثة من جهاز إرسال.

ووفقا لتقرير مركز «العمل فى الألغام»، فإن أجولة الطعام الأمريكية والقنابل العنقودية كان يتم إلقاؤها فى المناطق نفسها. ورغم اختلافهما فى الشكل والحجم، فإن كليهما أصفر اللون، وكان كثير من الأطفال يلتقطونها [شظايا القنابل] معتقدين أنها تحوى طعاما (المرجع السابق). وعلى حد علمنا، لم تظهر كلمة واحدة عن ذلك فى آى. تى. إن. أو أخبار تليفزيون بى. بى. سى. بينما تم عرض مصير مارچان الأسد الأعور وتقديم علاجه بالتفصيل.

القتل كأول حل

إن المرض الأخلاقى الذى أصاب مجتمعنا، كشفه التناقض بين التغطية الحميمة المكثفة عن ضحايا الولايات المتحدة فى ١١ سبتمبر وبين الضحايا الأفغان فى ٧ أكتوبر ٢٠٠١م. ففى بداية يناير ٢٠٠٢م، ذكر الكاتب الأمريكى إدوارد هيرمان أن التغطية الإعلامية عن موت ناثان تشاپمان ـ أول حالة وفاة، والوحيدة حتى تلك اللحظة، لمقاتل أمريكى ـ زادت عن التغطية لكل ضحايا الأفغان من القنابل والجوع. قيل إن والتر إيزاكسون رئيس شبكة سى. إن. إن. ذكر أن التركيز الزائد عن الحد على الضحايا أو المعاناة فى أفغانستان يعد حماقة (**هوارد كيرتس، رئيس شبكة سى. إن. إن. يأمر «بالتوازن» فى الأنباء التى ترد عن الحرب**، واشنطن پوست، ٣١ أكتوبر، ٢٠٠١م).

إنه أمر مفهوم، طالما أن الأفغان يفقدون أرواحهم بدون أسباب مقنعة. جادل البروفيسور ڤيكتور بولمر ـ توماس من المعهد الملكى للشئون الدولية، أنه بواسطة المزيد من إجراءات الأمن، وإجراءات ضد غسيل الأموال، وزيادة مشاركة أجهزة المخابرات حول العالم يمكن الحد من الإرهاب العالمى. وهو يؤيد اتباع مدخل يدرس أسباب الاستياء فى الشرق الأوسط، والسعودية والعراق. لكن بشأن القصف بالقنابل، فإن بولمر ـ توماس يوضح ـ وللأسف ـ أن وجود ذخيرة فى كثير من دول العالم يفاقم المشكلة. وكانت النتيجة التى توصل إليها غامضة بشأن شعب أفغانستان اليائس:

إذا كان أحد يعتقد بأن تفكيك إمكانات تنظيم القاعدة من خلال إزالة معسكرات تدريب الإرهابيين فى أفغانستان سوف يؤدى بشكل أو آخر إلى خفض مخاطر الهجمات الإرهابية فى المستقبل، فأخشى ألا يكون على صواب، لأن معسكرات تدريب الإرهابيين لا توجد بالضرورة فى أفغانستان وحدها، بل يمكن أن توجد فى أى مكان. وفى الواقع فإن الإغراء المتاح حاليا أمام القاعدة سيجعل مواقع تدريبهم تنتقل إلى أوروبا الغربية، وكندا، بل وحتى الولايات المتحدة. (بولمر ـ توماس، برنامج چوناثان ديميلى، آى. تى. ڤى.، ٢٧ يناير، ٢٠٠٢م).

فى الواقع، فإن الأمر الجدير بالاستغراب فى تغطية الميديا الغربية هو الرغبة الفورية فى قبول وتبرير حتى أكثر الحجج غرابة عن القتل الجماعى لشعوب العالم الثالث. ففى أبريل ٢٠٠٢م، كتب رورى كارول من الجارديان: إن أى أحد يحاول زعزعة استقرار أفغانستان فهو يقوم بعمل طيب. إن المدن المهدومة والتلال المحترقة التى تم تحريرها قريبا تعيد اكتشاف الخوف وعدم اليقين (عودة أمراء الحرب المتعطشين للدماء، الأوبزرڤر، ١٤ أبريل، ٢٠٠٢م). إن المدن المهدومة والتلال المحترقة لم تكن تكتشف الخوف ـ بعد تحريرها بالطبع. إن المجاعة الجماعية التى تفاقمت بفعل القصف بالقنابل وچنرالات الحرب المتأهبين، ضمنوا أن الخوف وعدم اليقين كانا موجودين دائما.

قبل شهرين من تعليق كارول، أوردت منظمة اللاجئين الدولية التقرير التالى:

مزيد من الهروب من أفغانستان، يؤكد انعدام الأمن هناك. ينتظر أكثر من ٢٠,٠٠٠ لاجئ أفغانى الوصول إلى پاكستان، والكثيرون فى طريقهم، وذلك وفقا لبيان المفوضية العليا لشئون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة. وفى العام الحالى حتى الآن، فر أكثر من ٥٠,٠٠٠ أفغانى إلى پاكستان. إنهم يحاولون تفادى الجرائم والمعارك فى قراهم التى تتداخل مع تسليم الأغذية الضرورية بعد سنين من الجفاف (تدفق مهاجرين جدد من سكان التلال الأفغان الذين يفتقدون الأمن، وكالة اللاجئين الدولية، ٢٥ فبراير، ٢٠٠٢م).

قبل شهر واحد من تعليق كارول، أبلغت وكالات الشئون الإنسانية عما رأته وتساءلت: لماذا بعد ثمانية أسابيع من انتهاء أسوأ فصول الحرب فى أفغانستان، ظل الشعب يأكل الحشائش على بعد بوصة واحدة من خريطة الطرق السريعة من المدينة الأفغانية الكبيرة مزار الشريف؟ (چوناثان فريرتس، **كم عدد الموجودين هناك؟ الجوع فى أفغانستان**، ٧ مارس ٢٠٠٢م <www.lwr.org/news/02/030702.asp>).

تخيل ميديا بعض التحالفات الأجنبية الفائقة القوة وهى تصف كيف تم «تحرير» شعب يأكل الحشائش من الخوف عن طريق قصفه بالقنابل، وخلصتهم من عدم اليقين والفوضى!!

لا يجب السماح للحقائق بأن تشوه رسائل الدعاية الجوهرية، بمعنى:

١ ـ حررت القوات العسكرية الغربية أفغانستان من الخوف، وعدم اليقين والفوضى، إلا أن بعض المتطفلين الأفغان يقومون حاليا بتدمير عملنا الجيد.

٢ ـ تتصرف الولايات المتحدة والمملكة المتحدة تصرفات طيبة لطيفة؛ والهجوم العسكرى الإنسانى شىء مفيد.

فى الواقع، هناك اختياران واضحان فى آثار كارثة هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١م. كان لا بد لقادة الغرب من البحث عن مغزى وحقيقة الأسباب التى تكمن وراء هذه الهجمات؛ أو أن يستغلوا المأساة لتنفيذ السياسات والممارسات الحالية وتمديدها.

لكن رفض الميديا للبحث عن الدوافع وراء الهجمات على نيويورك والپنتاجون كان جاهزًا. فى الذكرى السنوية الأولى لوقوع الهجمات، تحدث توم كارڤر مذيع بى. بى. سى. عن معاداة الأمركة كمشكلة عن صورة أمريكا لدى العالم. وفكر بجهد عن جذور هذه الكراهية الفطرية، ذكر كارڤر الحسد، عدم مكافأة الحب أو مبادلته، كأسباب محتملة: يكره الكثيرون أمريكا لأنها لا تعيرهم مزيدا من الاهتمام! وأعلن عن ذلك بغموض وإلغاز (أخبار المساء، بى. بى. سى. ٢، ٥ سپتمبر، ٢٠٠٢م). فى نشرة أخبار المساء فى بى. بى. سى. لاحظ پيتر مارشال أن الكثيرين ممن كرهوا أمريكا كانوا غيورين من دور الولايات المتحدة فى العالم (نشرة أخبار المساء، بى. بى. سى. ١١ فبراير، ٢٠٠٣م). أضاف توم كارڤر مزيدا من التعليقات الحكيمة فى

البرنامج نفسه، مذكرا بأن الأمريكيين يحاولون التفكير فى الأفضل بالنسبة للبشر، والأمم، إلى حد السذاجة، ومع ذلك وفى ١٩ سبتمبر ٢٠٠١م فى برنامج داڤيد لاترمان، قرر چون ميلر من قناة إيه. بى. سى. ABC أن ابن لادن ذكر ثلاث شكاوى فى مقابلة معه قبل عدة سنوات. وهذه كانت: الوجود الأمريكى فى المملكة العربية السعودية، ومساندة الولايات المتحدة لإسرائيل، وسياسة الولايات المتحدة تجاه العراق.

وعن رد الفعل الملائم لهجمات القاعدة، وفى مقابلة شخصية مع چون ميللر، تساءل محرر أخبار المساء چيريمى پاكسمان:

> أنت تعيش فى نيويورك سيتى... لا بد أنك تستعيد بوضوح ما حدث فى ١١ سپتمبر فى العالم الذى نحيا فيه الآن، أليس ما حدث نوعا من الضربة الوقائية؟! وهو الخيار الدفاعى الوحيد المتاح لدول مثل الولايات المتحدة الأمريكية؟ (نشرة أخبار المساء، بى. بى. سى. ٢، ١٨ فبراير، ٢٠٠٣م).

تأمل ناعوم تشومسكى فى فكرة أن هذا النوع من الضربات الوقائية قد يكون هو الخيار الدفاعى الأفضل، أو الوحيد المتاح فى التعامل مع ـ ولْنَقُلْ ـ الصراع فى أيرلندا الشمالية:

> هناك أحد الخيارات يتمثل فى إرسال قوات غير نظامية لقصف مصادر تمويلهم بالقنابل، أماكن مثل بوسطون، أو نشر قوات كوماندوز للقبض على من تحوم حولهم الشكوك فى تورطهم فى مثل هذه الأمور، وقتلهم أو ترحيلهم إلى لندن لمحاكتهم **(تشومسكى، ٩ - ١١)**، دار نشر سبع قصص، ٢٠٠١م، ص٦٢ - ٦٣).

وهناك احتمال عاقل آخر ـ حسب تعليق تشومسكى ـ هو التفكير بواقعية فى خلفية الشكاوى والمظالم، ومحاولة علاجها، وفى الوقت نفسه اتباع قواعد القانون لمعاقبة المجرمين (المرجع السابق).

الأفضل قصفها بالقنابل

فى ٧ يناير ٢٠٠٣م، نشرت عدسات الميديا تحذيرات الميديا بعنوان: أهو عصر

إظلام أخلاقى؟! ملايين العراقيين الذين يعانون ـ إشارة فى الاقتصاد العالمى؟! <www.medialens.org> وذلك ردا على تعليق فى الإندبندنت كتبه المراسل الاقتصادى هاميش ماكرى. كتبنا إلى ماكرى فى ٢ يناير، ٢٠٠٣م:

العزيز هاميش ماكرى

قرأت أول مقال لك فى شهر يناير فى صحيفة الإندبندنت (فى عام كان على التوقعات الحقيقية ألا تؤدى إلى خيبة الآمال). لقد كتبت أن العام الماضى بدا كئيبا، لأن عددا ضئيلا للغاية من مشكلات بداية العام هو فقط الذى تم حله، لكنك أضفت أنه على الأقل فإن الحرب فى أفغانستان كانت ناجحة من حيث العمليات العسكرية. كان لا بد من وصف تلك الحرب بأنها مجزرة، مات فيها أكثر ٥,٠٠٠ أفغانى بسبب القصف بالقنابل، وربما مزيد من الوفيات أكثر من ٢٠,٠٠٠ من آثار القصف **(الجوع أو المرض)**، وهو أمر لم يرد له ذكر. لماذا؟

كذلك أدركت بشكل صائب أن التساؤل الرئيسى يظل مفتوحا، ولا تزال تهديدات الإرهابيين مستمرة، مما يتناقض بالتأكيد مع ادعائك بأن الحرب كانت ناجحة من الناحية العسكرية. طالما ظل التخلص من بن لادن ومن تهديدات تنظيم القاعدة هو الهدف الواضح للحرب فى واشنطن ولندن.

أتشوق لمعرفة ردك. المخلص

داڤيد كروميل

(رسالة إلكترونية إلى هاميش ماكرى، ٢ يناير ٢٠٠٣م)

رد من هاميش ماكرى، ٢ يناير، ٢٠٠٣م:

عزيزى السيد كروميل

شكرا على رسالتك الإلكترونية. لقد استخدمت عبارة «من منطلق العمليات العسكرية» بتعمد، كما أشرت أنت بحق إلى ذلك، فإن التكاليف كانت باهظة من الناحية الإنسانية. وأنا على أى حال لا أتقبل مصطلح مجزرة.

أعتقد أنه من المعقول توضيح أنه فى السنوات القادمة، فإن الشعب الأفغانى ـ وبخاصة النساء ـ سوف يعيشون حياة أفضل من تلك التى عاشوها فى ظل حكم طالبان. هذه المكاسب الإنسانية لا بد من وضعها فى الاعتبار. وإن كنت لم أتوسع فى الأعباء الإنسانية، فإننى كذلك لم أؤكد على هذه المكاسب الإنسانية، إن تلك مقالة ذات نطاق واسع حول التهديدات التى يواجهها العالم فى السنوات التالية، وليست هذه الحرب بالذات، لو كنت أطلت عليك فقد كنت أبحث عن الإبقاء على هذا التوازن، رغم أننى بالطبع لا أتوقع أن يكون مَنْ يقفون على الجانب الآخر من المناقشة يتفقون معى.

أما إن كان الموضوع متعلقا بالنجاح أو الهجوم، أعتقد أنه من المناسب القول (أنه) كان ناجحا، بمعنى أنه ساعد فى إنهاء النظام الذى وفر الحماية لأسامة بن لادن، وأنه مزق بوضوح شبكة القاعدة. وانتهت على سبيل المثال معسكرات تدريب القاعدة، وهكذا فإنه بكل تأكيد التهديد حاليا أقل عما لو كان الهجوم لم يتم.

أتمنى أن يكون ما قدمته مفيدا.

تحياتى وشكرا لاهتمامك المخلص

هاميش ماكرى

لمزيد من الاطلاع على الرسائل المتبادلة، بما فى ذلك متابعة تفنيد آراء هاميش ماكرى، ارجع إلى موقع الميديا «الأفضل قصفها بالقنابل ـ العراق، قصف أفغانستان بالقنابل والشفقة الانفصالية ٢٠ يناير ٢٠٠٣م <www.medialens.org/alerts>. إن الملمح الأساسى لنظام الدعاية، هو أن يظل هؤلاء الصحفيون الخبراء يثرثرون عن المكاسب الإنسانية المزعومة التى تنشأ من الهجمات الغربية الوحشية على دول العالم الثالث، وهم بذلك يرددون صدى العبارات الطنانة للساسة الغربيين. إن ترادف هذه البيانات اللانهائية عن الفضائل الغربية، بمثابة تصنيف ميديا الاتجاه السائد للمخالفين لهم فى الرأى على أنهم حمقى. ولنتأمل هذا المثال من الجارديان:

فى ٨ ديسمبر ٢٠٠١م، أصدرت عدسات الميديا تحذيرات: المعارضون يتم طردهم على أنهم شخصيات أنانية غاضبة مضللة (www.medialens.org). ركز الإنذار على

مقال كتبه روري كارول من الجارديان بشأن الروائي المعارض جور ڤيدال (كارول، إننا لا نعرف إلى أين نسير؟ الجارديان، ٦ ديسمبر، ٢٠٠١م). أرسلنا التحذير إلى كارول وتلقينا هذا الرد في ١١ يناير، ٢٠٠٢م:

عزيزي داڤيد

شكرا على الرسالة الإلكترونية، وآسف على تأخر الرد، لقد كنت في أفغانستان لمدة خمسة أسابيع، ولم يمكنني الوصول لهذا الموقع. إن بعضًا من ملاحظاتك عن طبيعة الميديا المماثلة لطبيعة مؤسسات الأعمال (business)، وكيف يفسد ذلك استقلاليتها أمور أوافق عليها. إن بعضًا من التغطية عن أفغانستان وپاكستان منذ سپتمبر [٢٠٠١م] كانت مخزية. لكن ملحوظتك الأساسية عن القطعة التي كتبتها عن ڤيدال وأنها تتطابق مع التآمر لتشويه سمعة مثل هؤلاء المثقفين كانت خاطئة. لم يخبرني أحد عما علَيَّ أن أكتبه، وليس لديَّ علم عن برنامج خفي، أو توقع لما ستجري عليه الأمور. إن ما كتبته يتناسب مع ما اعتقدته بشأن هذا الشخص. يبدو أنك تشارك ڤيدال كثيرًا من وجهات نظره، أما أنا فلا، فقد كنت فقط أبعث بتقرير عن انطباعاتي. لكنني كذلك أوردت وجهات نظره بدقة. أنت مؤهل لاعتبار آرائي باهتة وساذجة، لكن تجاهلها على اعتبار أنها ملطخة كمؤسسات الأعمال، لا يبعد كثيرًا عن اتهامك لي.

تحياتي

روري

نحن نتفق معك في أن «بعض تغطيات أفغانستان وپاكستان منذ سپتمبر كانت مخزية» لكننا نعتقد أن التعليقات قليلة المعنى ـ ولا تهم درجة أمانة ودقة أداء الميديا، لأنه ـ مهما كان ما يجب أن تتحلى به الميديا من دقة وأمانة ـ فإن الرأي الشخصي سوف يؤكد دائما على أن بعض التغطية مخزية.

كما سبق وناقشنا، فإن الجارديان قدمت شذرات طفيفة في تغطيتها لضحايا كوسوڤو وضحايا أفغانستان في مأساة يحمل الغرب مسئوليتها إلى حد كبير. لكن

ذلك ليس الموقف الوحيد. فمن ناحية، قدمت الجارديان ـ مثلها مثل مؤسسات الميديا الأخرى ـ باستمرار تغطية كثيفة عن جرائم الأعداء: النازى الألمانى، كمبوديا فى ظل حكم الخمير الحمر، العراق فى ظل نظام صدام (فى التسعينيات) وصربيا فى ظل حكم ميلوسوڤيتش. ومن ناحية أخرى، فإن نفس هذه الميديا قدمت أدنى حد من التغطية عن جرائم نتحمل من مسئوليتها: تلك التى ارتكبت فى شيلى فى فترة حكم پينوشيه، وجواتيمالا فى ظل حكم أرماس، وإندونيسيا فى ظل حكم سوهارتو، وإيران فى ظل حكم الشاه، والعراق فى ظل حكم صدام (فى الثمانينيات)، وأفغانستان حاليا، وتركيا حاليا، وكولومبيا حاليا، وغيرها. مقالات فردية مخزية على انفراد، إن ذلك النمط الأساسى يكشف عن أن الجارديان الليبرالية ـ مثل شركات الاتجاه السائد دائما ـ تعمل كنظام دعاية واقعى يعزز ويحمى المصالح المشتركة للدول.

لكن كل ذلك لا يعنى على الإطلاق أننا نقترح شكلا من أشكال التآمر. كتب كارول أننا اتهمناه بكتابة مقال يتناسب مع مؤامرة أوسع لتلويث مثل هؤلاء المثقفين، بل إنه أوضح أننا تخيلنا أنه ربما اتبع خطا يمثل المنهج المطلوب، أو ربما كانت لدى المحرر المفوض توقعات قائمة على برنامج خفى. كل ما يمكننا قوله إننا وجدنا مثل تلك الإيضاحات غير مألوفة؛ لم نذكر شيئا من التآمر فى برنامج إنذارات الميديا الخاص بنا، ولن نفعل ذلك فى أى مكان فى كتاباتنا، كان ذلك تفسير كارول (الخاطئ) عما كتبنا.

كثيرا ما قابلنا رفض مثل هذا الرجل «الزائف» لعملنا. وكما لاحظ محلل الميديا الأمريكى إدوارد هيرمان:

> إن نقاد الميديا اليساريين دائما ما يثيرون الاتهام بالتآمر، وذلك لأن العاملين فى الميديا والمدافعين عن مؤسسات الميديا خاملون لدرجة أنهم لا يفحصون بدقة القضية التى يعرضها النقاد اليساريون، أو يفهمونها، أو أنهم سعداء بالإبقاء على تكتيك تشويه السمعة. (كتل من بيت المجانين، مجلة Z، نوڤمبر ٢٠٠١م).

عندما حاورت عدسات الميديا مقدم أخبار القناة الرابعة چون سنو عام ٢٠٠١م، قال عن جدالنا:

> ما أسهل أن يلوم المأجورون المؤسسات بزعم أنها تتآمر لمنعهم مناقشة الأحداث...

يمكننى أن أخبرك أنه إذا طلبنى على التليفون شخص من پيبسى كولا ـ وكان يجب علىّ أن أقول إننى لم أتلق مكالمة من أى مؤسسة، فهل يعنى هذا أنى لقد قدمت لهم حلاّ من الإثم! (مقابلة شخصية مع داڤيد إدواردز، ١ يناير ٢٠٠١م <wwwmedialens.org/ar(ticles_2001/de_jon_sow_interview.htm>.

عندما أكدنا لسنو أننا لم نعتقد لبرهة قصيرة أن تحيز الميديا يعد مؤامرة، أو حتى عن وعى، أجاب: حسنا، أنا آسف لأن أقول إن شيئا من ذلك يحدث أو لا يحدث. فإذا حدث ذلك فإنه يعد مؤامرة، أما إذا لم يحدث فهو لا يعد مؤامرة. مثال صارخ على ما أسماه هيرمان: تحليل على مستوى كتب الفكاهة (هيرمان، كتل من بيت المجانين) وبالمثل فإن فى اللقاء الشهير: دمدمة فى غابة الميديا، التى عقد فيها محرر الإندپندنت السابق أندرو مار مقابلة مع ناعوم تشومسكى، قال مار: الفكرة أن تحذير أورويل [حول رقابة الفكر والدعاية] الذى ما زال وثيق الصلة بالموضوع قد يبدو عجيبا (الفكرة الكبيرة، بى. بى. سى. ٢، ١٤ فبراير ١٩٩٦م). طلب مار من مستمعيه التأمل فيما إذا كان من الممكن أن تكون الميديا قد تم تصميمها للحد من كيفية تخيلك للعالم؟؛ إلا أن الفكرة الشاملة التى يطرحها تشومسكى أن عملية رقابة الفكر فى المجتمعات الديمقراطية لا تحدث من خلال عمليات تآمرية، من خلال آلية طريقة الأخ الأكبر، بل نتيجة لقوى السوق الحرة. يكمل مار: ما لم أستطع فهمه، أن كل ذلك يقترح.. أن أشخاصا مثلى لديهم رقابة ذاتية! . تشومسكى لا يوافق: لم أقل إنك ذو رقابة ذاتية. أنا على يقين من أنك تؤمن بكل شىء ذكرته. لكن ما أقوله هو أنه إذا ما كنت قد آمنت بشىء مختلف، فلم تكن لتستطيع أن تكون فى الوضع الذى تحتله الآن.

إن ما لم يتوصل إليه مار ـ مثله فى ذلك مثل كارول ـ أن هذه المجادلات العدائية لا تعتمد على رقابة ذاتية تآمرية، ولكن على نظام للترشيح حافظت عليه قوى السوق الحرة ـ ضغوط الحد الأدنى، ونفوذ المالكين، وأهداف الشركات الأم وحساسياتها، واحتياجات المعلنين، ونفوذ الحكومة الودود لمشروعات الأعمال، ومدفعية العلاقات العامة للمؤسسات ـ التى تقدم التحيز عن طريق تهميش البدائل، وتقدم الحوافز للتكيف؛ بينما تقدم الخسارة جزاءً لعدم التكيف.

هذا هو كل ما نود توضيحه لروري كارول، نحن نوضح أنه جزء من نظام مؤسسات الميديا الذى يختار بدقة لبعض المحررين، ولصحفيين معينين، معتقدات بعينها، ووقائع بعينها، وضحايا معينين، وجرائم معينة ضد الإنسانية. هذا النظام تم انتقاؤه لكل من هاميش ماكرى، وروري كارول، وتيموثى جارتون ـ آش، وجاى راينر، وچون سنو، وداڤيد رييف، وتشارلز چينجز، وچو چوزيف وآخرين. كل ما نقوله هو أنهم إذا ما اعتقدوا شيئا مخالفا لما تراه مؤسسات الميديا لما جاءوا إلى المواقع التى يشغلونها.

نظرة من الخارج إلى الداخل.

عدسات الميديا وريتشارد سامبروك مدير أنباء بى. بى. سى.

من ريتشارد سامبروك فى ٢١ يناير ٢٠٠٢م:

عزيزى السيد كرومويل

شكرا على رسالتك الإلكترونية عن التغطية فى أفغانستان. آسف أنك شعرت بأننا لم نعط التفاتا كافيا لكارثة اللاجئين. على أى حال نحن لم نتجاهل معاناة المدنيين الأفغان. ربما لم نتمكن من الحصول على فرصة للاطلاع على برنامج مراسل بى. بى. سى. المسائى: الفاقدون كل شىء، حصل تاغى آميرانى على فرصة نادرة للوصول إلى معسكر اللاجئين فى ماكاكى بالقرب من الحدود الأفغانية الإيرانية. كان يريد سماع أصوات الأفغان البسطاء، يرى الحرب ضد الإرهاب من خلال عيونهم، ويقف على شكل الحياة الحقيقى فى معسكر للاجئين. تضمن البرنامج صورا عن عبد الستار شريف ـ سائق من كابول ـ الذى قال: إذا مات أمريكى واحد سمع العالم كله عنه. لكن الأفغان يموتون يوميا ولا أحد يسأل مَنْ قُتل؟ ولا كيف قُتل؟! انظر إلىَّ! لقد فقدت زوجتى وطفلى، والآن أعيش فىَ أوساخ، ولا أحد يهتم!.

هذا الصباح، جاء فى برنامج اليوم على محطة الإذاعة ٤ تقرير لأندرو كيليجان من كابول عن حجم المساعدات المطلوبة. تلا ذلك مقابلة شخصية مع كلير شورت، سكرتير التنمية الدولية، حول ما قام به المجتمع الدولى لتقديم المساعدة.

أدلى چوناثان تشارلز بتقرير عن معاناة الشعب الأفغانى فى يوم السبت هذا فى نشرة الأخبار التليفزيونية على بى. بى. سى. (١٩ يناير) قال: ذلك يبين السبب فى أن المال المطلوب يدعو لليأس تماما. تعيش شوارع كابول فى دمار تام من جراء القصف. يعيش الكثيرون حياة بائسة وسط الحطام. هذا الرجل فقد أحد رجليه عند سقوط قنبلة على الأرض، ويأمل فى أن تقدم المعونة الأجنبية مستقبلا أفضل للأفغان. قال: نحن فى فصل الشتاء، والناس فى حاجة عاجلة لإعادة بناء منازلهم ليهربوا من برودة الجو!.

أوردت إشبل ماثيسون تقريرا من كابول لأخبار قناة بى. بى. سى. التليفزيونية حول الوضع المخيف لصحة النساء:

تظل أفغانستان مكانا يحيق به الخطر، ومن الصعوبة السفر خارج العاصمة. يخطط داڤيد ليون ـ الذى عمل مراسلاً من تلك البلاد منذ سنوات طويلة ـ للسفر ومعه طائرة معونات إلى معسكر اللاجئين فى المسلخ، لكن التوقيت فى يد وكالات المعونة. إن لشبكة أخبار بى. بى. سى. تاريخًا طويلاً فى التغطية فى أفغانستان، حتى عندما لم يكن هناك مراسلون آخرون. افتتح مكتب بى. بى. سى. فى كابول فى ١٩٨٩م. عندما طردت كات كلارك أحدث مراسلة فى مارس ٢٠٠١م، كانت المراسلة الغربية الوحيدة فى كابول.

ورغم أن ذلك لا يعنى أننا يمكن أن نورد تقارير يومية عما يحدث هنا، فإن ذلك التزام سوف نحافظ عليه فى المستقبل. آمل أن تستطيع هذه الأمثلة التخفيف من الغضب حول تجاهل أخبار بى. بى. سى. كارثة مدنيى أفغانستان. شكرا لأنك اقتطعت من وقتك لترسل لى تعليقاتك.

المخلص

ريتشارد سامبروك

ردت عدسات الميديا فى ٢٢ يناير، ٢٠٠٢م:

عزيزى السيد سامبروك

جزيل الشكر لردك الفورى. لقد شاهدت بالفعل مراسل مساء الأحد. إنه

كان يتحرك، لكنه لم يُعْطِ وصف الرعب الحقيقى للأوضاع فى أفغانستان حقه. قرر تاغى آميرانى فى النهاية أن ٣٥٠٠ أفغانى مدنى فقدوا حياتهم، ولم يذكر السبب الحقيقى لوفاتهم. وكما نعرف، إن ذلك تقدير متحفظ عن ضحايا القنابل وحدها. إلا أنه فى ٣ يناير ذكرت الجارديان الظروف التى يعيش فيها ٣٥٠,٠٠٠ لاجئ أفغانى فى معسكر المسلخ، على بعد ٣٠ ميلا من مدينة حيرات. وصف دوج ماكنلى كيف أن ١٠٠ من هؤلاء اللاجئين يموتون يوميا من التعرض للقصف أو من الجوع (كارثة بحجم كارثة ١١ سبتمبر تحدث كل شهر) وفى ٩ يناير، ذكرت الجارديان أن القرويين الذين ماتوا جوعًا فى بوناڤاش كانوا يقتاتون على وجبة من الحشائش ـ هذه المعاناة كانت أسوأ بشكل لا مثيل له من كل ما تم تصويره فى فيلم آميرانى.

قبل بداية القصف، حذرت وكالات المعونة باستمرار من أن تهديد القصف يعرض حياة عدد كبير من المدنيين، يصل إلى ٧,٥ ملايين مدنى أفغانى، للخطر.

منذ بداية الهجوم، أكدت هذه الوكالات أن الاضطراب والفوضى والرعب الذى سببه القصف بالقنابل كان مسئولا بالفعل عن مزيد من المعاناة الإضافية، وعن مزيد من الموت الجماعى للأفغان. لم توجد إشارة لذلك فى فيلم آميرانى، وكذلك لم يذكر شىء عنها فى شبكة بى. بى. سى. وآى. تى. إن. هذا العام.

لقد أشرت إلى عدد ضئيل من التقارير التى تناولت كارثة المدنيين الأفغان. لكن التغطية كانت غير ذات معنى مقارنة بتغطية بى. بى. سى. (الفورية) عن اللاجئين إبان أزمة كوسوڤو فى ١٩٩٩م. وكانت توجد تقارير يومية عن الرعب الذى يواجه اللاجئين، والآن لا يوجد ذكر لشىء تقريبا. إن التناقض لا يمكن أن يكون أكثر مأساوية مما حدث. كيف تفسر هذا الفرق؟ إن صعوبة تصوير الأفلام داخل أفغانستان لا يفسر ذلك، ولا يبرره. وعلى أقل القليل، فإن بى. بى. سى. كان يمكنها تخصيص مزيد من التغطية للاجئى أفغانستان الذين عبروا الحدود إلى پاكستان.

فى كلمتك فى ديسمبر الماضى لجمعية التليفزيون الملكية، قلت: إن مشاهدة الأخبار عبر كل القنوات حاليا انخفضت بنسبة ٢٥ فى المائة. . . وهناك حاليا تقسيم سياسى جديد: لم يعد الأمر بعد «يسار» و «يمين»، الأمر الآن «نحن»، و«هم»، و«هم» هنا هم الساسة، والمؤسسة الرسمية، والمذيعون، والميديا. . حوالى ٤٠ فى المائة من المستمعين يشعرون أنهم فى الخارج وينظرون إلى الداخل، وأن الخيارات الحقيقية أمامهم ضئيلة (داڤيد ليستر، «قنبلة موقوتة» مشاهدون أقل يشاهدون أخبار التليفزيون، الإندپندنت، ٥ ديسمبر، ٢٠٠١م).

إنه من المعقول تماما أن تبدو بى. بى. سى. للجمهور كجزء «منهم» ـ المؤسسة. إن تغطية بى. بى. سى. الإخبارية فى أفغانستان ـ كما فى قضايا هامة أخرى ـ تشير بوضوح إلى أن بى. بى. سى. تنظر بتحيز إلى مؤسسات النفوذ الغربية. من الصعب تجنب الانطباع بأن أداء بى. بى. سى. تشرحه حقيقة أن معاناة لاجئى كوسوڤو كانت تستخدم كأداة دعاية قوية لدعم سياسة حكومة المملكة المتحدة [إذ كان من الممكن فى هذه الحالة إلقاء اللوم على الصرب] فى ١٩٩٩م، بينما تمثل معاناة اللاجئين الأفغان مأزقًا حقيقيّا للحكومة البريطانية.

نحن نعتقد أن تقارير بى. بى. سى. محرَّفة للغاية بسبب افتقارها إلى الاستقلال عن نفوذ الحكومة وأيديولوچيتها، خاصة عندما تكون السياسة الخارجية هى المعنية. الشىء المحزن أن التغطية الهزيلة لقناة بى. بى. سى. عن الموت الجماعى بين اللاجئين الأفغان تضيف قوة كبيرة للجدال بأن صحافتنا الحرة هى ـ فى واقع الأمر ـ دجل وخداع.

عندما حاولت عدسات الميديا سؤال السيد آميرانى عن وجهة نظره حول الحد الأدنى من التغطية فى بى. بى. سى. لمعاناة الأفغان هذا العام ـ وأشارت كمثال إلى الكوارث التى لم يقدم عنها أية تقارير فى المسلخ وبونوڤاش ـ كانت كل أسئلتنا الجدالية عن أداء بى. بى. سى. [ليست هذه الكلمة قوية أكثر من اللازم] عن طريق فريق المراسلين على الخط. وفيما يلى ما تبقى من محاولتنا فى أن ندخل مناقشة صريحة وعلنية:

كنت متأثرا من الأعماق بشجاعة وعاطفية فيلمكم. مس القلب رؤية الناس فى أفغانستان ـ بما فيهم طالبان ـ وهم يعرضون كبشر. إن معاناة الشعب الأفغانى مأساة مفزعة. خالص شكرى الحار لإنسانية فيلمكم. ونأمل أن يقدم بعض التخفيف من معاناة مَن التقيتم بهم من الناس.

داڤيد إدواردز، إنجلترا

سمح بنشر كل من المقدمة والخاتمة المليئتيْن بالتهانى، لكن لم تنشر أى كلمة اعتراض هل تداخلك الدهشة كما ذكرت فى كلمتك فى ديسمبر الماضى من أن المستمعين يشعرون أنهم فى الخارج، ينظرون للداخل، وأنهم يشعرون بأن ما يقدم لهم هو أقل خيار ممكن متاح؟!.

المخلص

داڤيد كروميل

محرر مشارك فى مشروع عدسات الميديا

لم يرد علينا ريتشارد سامبروك.

obeikan.com